



الدورة الحادية والعشرون
لمؤتمر مجمع الفقه الإسلامي الدولي
1435هـ - 2013م

الحوار بين أتباع المذاهب الإسلامية (تجربة التقريب بين المذاهب الإسلامية)

إعداد

الأستاذ الدكتور علي جمعة محمد
عضو هيئة كبار العلماء بالأزهر الشريف

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله العليّ الأعلى العليم الحكيم، الذي شرع لنا الدين القويم، فأقامه على أسس الحق والعدل، وحقّق فيه لعباده المصالح، ودفع عنهم المفاسد، والصلاة والسلام على سيدنا محمد رسول الحق إلى كافة الخلق، خاتم الأنبياء، ونبي الهدى، خير من وطئ الثرى، وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد؛ فقد أنزل الله الإسلام عباءة فضفاضة واسعة يمكنها أن تشمل جميع من يشتملها أو يتدثر بها مهما اختلفت مشاربهم العقلية ومستوياتهم الفكرية، أو اختلفت ألوانهم وأعراقهم، فالإسلام هو الرباط الذي يمكنه أن يجمع شمل كل هؤلاء ويوحدهم من الضياع والتشرذم.

ولقد تفردت أمة الإسلام عن غيرها من الأمم بكثرة المقومات التي تجمعها وتوحيدها، فعقيدتها واحدة هي عقيدة التوحيد، وكتابها واحد هو القرآن الكريم، ورسولها واحد هو محمد صلى الله عليه وسلم، وقبيلتها في الصلاة واحدة، وهي الكعبة المشرفة اجتمعت كلمتها على ذلك.

ولا شك أن مد جسور الترابط والتقارب فيما بين المسلمين بمذاهبهم المختلفة - العقدية والفقهية - بالحوار والتعاون في العصر الحاضر بات أكبر تحدٍ حضاري لهم؛ فضلا عن كونه واجبا شرعيا، وذلك أولى من الحوار بين المسلمين وغيرهم من أتباع الديانات الأخرى، فليس من المنطق أو العقل أن تمتد أيدينا إلى الجيران بالتواصل ونحن كأخوة نتنافر ونتباعد، إن الأمة الإسلامية في يومنا هذا تواجه تحديات ومصاعب تهدد كيانها واستقلالها بل ووجودها، وليست تمتلك ترف الخصام والتعادي فيما بينها، بل يجب عليها التلاقي على المشتركات والتعاون سويا من أجل إنقاذ ما تبقى لها من كيان، فالعالم كله من حولنا - رغم تحقق عوامل التنافر فيه - يجتمع ويتوحد في كيانات عملاقة، ويسعى دائما إلى تفتيت الآخر وحرمانه من كل سبل التوحد، حتى يسهل عليه الاستفادة بمقدّراته وموارده.

وهو ما أكدّه محمد علي علوبة رئيس جماعة التقريب بالقاهرة حيث قال:

وكان تصرفه صلى الله عليه وسلم في سياسة المؤمنين مبنيّا على هذا المبدأ السامي: إهدار العصبية، وهدم عوامل التفرق والتقاطع حتى ألف الله به بين جميع القلوب وبنى من هذه اللبنات المفككة صرحا قويا متماسكا استندت إليه دعوة الحق، واحتفى به الإسلام وهو ناشئ غض، حتى جاء نصر الله

وبعد عهد النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه فعلت السياسة فعلها وعادت العصبية إلى سابق عهدها، فتعددت الأحزاب والفرق والطوائف، وكثرت الخلافات والمسائل الجدلية، وترامى المسلمون بالتهم، وساءت بينهم الظنون، ومشى كل فريق في طريق فضلت بهم السبل عن الطريق السوي، وذاق بعضهم بأس

بعض، وتمكن منهم أعداؤهم، فدسوا لهم في السياسة، ودسوا لهم في التاريخ، ودسوا لهم في العلم والرواية، ودسوا لهم في النظريات الفلسفية، والقضايا الغيبية، وفتحوا لهم آفاق الشك والريب فيما لديهم، وشغلوهم بالجدل والخصام حتى أهلكوا قواهم، وأوهنوا عقولهم، وحطموا أعصابهم، وأفقدوهم الثقة في أنفسهم، ثم اقتطعوا أوطانهم قطعة قطعة...

وتلك حال المسلمين اليوم وإن داءهم لقدس منذ تدايروا وتقاطعوا وصاروا شيعة، كل حزب بما لديهم فرحون، ولا صلاح لهم ولا شفاء من داءهم إلا بأن يعودوا كما بدأهم الله أمة واحدة لا فرق بين شعوبهم، ولا تناحر بين طوائفهم.

إن أصول الإسلام واحدة، فكل المسلمين يؤمنون بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبين، وكلهم يعتقدون أن القرآن حق، وأن رسالة محمد حق، وأن عليهم إذا تنازعوا في شيء أن يردوه إلى الله ورسوله، وقبلتهم واحدة، وصلواتهم واحدة، ولا خلاف بينهم فيما بنى عليه الإسلام من أسس، فما بالهم يعيرون ما وراء هذه الأصول اهتماما.

إن المسلمين في ضعف لأنهم في تفرق، وهم في تفرق لأنهم متقاطعون يجهل بعضهم ما عند بعض، ومن جهل شيئا عاداه، ولو أنهم تقاربوا لتفاهموا، وقد يزول بتفاهمهم كثير من أسباب خلافهم، أو يحتفظ كل منهم برأيه فيما وراء العقيدة الإسلامية، على أن يعذر بعضهم بعضا، ويحترم بعضهم بعضا كما كان سلفهم الصالح من أئمة الدين والفقهاء يفعلون، وتلك هي مهمة جماعة التقريب إن تريد إلا تعريف المسلمين بعضهم إلى بعض، وجمعهم على أسس الدين الحق التي نزل بها القرآن وجاء بها الرسول، ودعوتهم إلى أطراح أسباب الخلاف فيما لا طائل تحته، ولا فائدة تلتبس منه.

إن سياسة الدول والأمم في العالم اليوم قائمة على التكتل والتحالف والانضواء في مجموعات متعاونة يسند بعضها بعضا، ويدفع بعضها بعضا، وإنهم ليلتمسون أوهى الأسباب والروابط ليرتبطوا بها، أما المسلمون فدينهم واحد، وكتابهم واحد، وهدفهم في الحياة وبعد الممات واحد، وكل شيء بينهم يدعو إلى الألفة، ويساعد على الوحدة. ⁽¹⁾

والحوار يشكل ركيزة أساسية في ترابط المجتمع وبناء أفراد، وتطلعهم نحو التعايش، وتطوير حياتهم ومستقبلهم وثقافتهم. فهو يعني تبادل الكلام بين طرفين أو أكثر لأجل البلوغ إلى قناعات مشتركة حول موضوع معين، ومن ثمَّ فهو وسيلة مهمة للتفاهم بين الأفراد والمؤسسات والبلدان، حيث إنه سبيل التعاون فيما بينهم بما يحقق المصلحة المشتركة بين الناس، وهو اختيار البشرية للتواصل السلمي بغية التعارف والتقارب.

ومن ذلك فالحوار بين أتباع المذاهب الإسلامية يفتح بابًا لتجديد الفقه الإسلامي وتطوير الاجتهاد الجماعي، بما يواكب التغيرات السريعة التي تحدث في عالمنا المعاصر ونحتاج إلى ملاحقتها، في حين يؤدي انغلاق أتباع كل مذهب على ما جاء فيه من اجتهادات إلى الجمود والتأخر .

ولا بد أن يكون للحوار منهج يسير على وفقه، يلتزم به المتحاورون، ومراعاة هذا المنهج تؤدي إلى تحقيق أهداف الحوار من التعارف والتقارب، وإغفاله يفضي بالحوار إلى جدل عديم الرؤية تعلو به نبرة اللغو، وربما يؤدي إلى زيادة الخلاف والتنافر.

منهج الحوار :

منهج الحوار هو النظام الذي يحكم إدارة الحوار في ضوء ما يتفق عليه المتحاورون من القواعد العامة لإظهار الحق مثل :

- (1) أن يُلزم كل طرف بما جاء في مصادر مذهبه ومراجعته المعتمدة التي تظهر الآراء والحجج.
- (2) أن يعرض كل طرف وجهة نظره بوضوح تام لا لبس فيه، حتى تظهر حقيقة مذهبه.
- (3) أن يرمي الحوار نحو الاتفاق مع الآخر على كلمة سواء، تُقارب فيما بينهم على نحو ما دعانا ربنا أن نطلب من أهل الكتاب الاتفاق على كلمة سواء حيث قال تعالى: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾ [آل عمران: 64].
- (4) أن يتجرد كل طرف عن الأحكام المسبقة على الطرف الآخر، أو افتراض بديهيات غير مُسلَّمة عند الجميع.
- (5) أن يرغب كل طرف عن فرض رأيه على أخيه ، وألا يدفعه تعصبه لرأيه أن يسفه رأي أخيه.
- (6) ألا يعلو أحد المتحاورين على الحق، بل يروض نفسه على اللين والمرونة ، واحترام معتقدات الآخر، وتقدير حقه في الاختلاف، وألا يتبع اللدد في الخصام، بل تكون المجادلة بالتي هي أحسن.
- (7) أن يعتمد المحاور في تأصيل المعرفة على المنهج العلمي، فينقل عن المصادر الموثقة والمعترف بها معبرة عن المذهب، ولا ينقل عن المجهول، فلقد ذم الله عز وجل من يتصدى للجدال عن أمر لم يحط به علما، أو حصل منه مجموعة من الظنون دون اليقين، قال تعالى: ﴿وَمَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا﴾ [النجم: 28]، وقال تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ﴾ [الحج: 8].
- (8) الدقة في اختيار المتحاورين، بحيث يتحلون بصفات تُنجح تجربة الحوار، كأن يلتزموا الموضوعية والإخلاص والصدق والصبر واللين والتسامح وقبول الآخر، والرغبة القوية في البلوغ بالحوار إلى أهدافه، ويجب أن يتسم المتحاورون بالقدرة العلمية والفكرية على عرض الأفكار والحجج، والاطلاع على خبايا المذهب وأصوله وفروعه، فإنَّ ضعفَ طرف من أطراف الحوار يهدد بانحياز التجربة برمتها، ويضاف إلى المقدرة العلمية الماهرة على المجادلة وإدارة الحوار، وهي مهارة تحتاج إلى خبرة ودربة في الاستدلال والاحتجاج وتفنيد براهين المخالف.
- (9) دراسة أطراف الحوار لتفاصيل ودقائق الموضوع الذي يدور حوله الحوار، بحيث تتضح الأمور والموضوعات ويتم تحرير محل النزاع فيما يدور حوله الحوار، حتى لا يتشتت مسار تبادل الآراء والأفكار وينحرف عن مقصده، ويصبح الحوار جدالا ومضيعة للوقت والجهد.

(10) إنهاء الحوار بشكل يمثل حسن الممارسة، فبمجرد أن يظهر من بعض المتحاورين الغضب لما يواجهه من تفنيد لقوله وحجته، أو التوتر حينما يعجز عن عرض أفكاره ومذهبه، يجب أن تتحول دفة الحوار نحو الإطار المتفق عليه، والبحث عن أرضية مشتركة مع الآخر، حتى يخرج الحوار بشيء من التقارب حول النقاط المتفق عليها أو التي يمكن إعادة صياغتها بما يحقق التوافق، وفي النهاية يجب إنهاء الحوار على الشكل اللائق بأهدافه، وهي حسن الممارسة التي تسمح بإبقاء روح الود والإخاء، وهو قاعدة جلييلة مستنبطة من صفات سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ حيث قال تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ [آل عمران: 159].

وهو ما قرره الله تعالى في صفات عباد الرحمن؛ فقال: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ﴾ [القصص: 55].

التقارب واجب شرعي :

إن النصوص الدينية التي جاءت بها الشريعة الإسلامية سواء في القرآن أو السنة والتي تأمر بالوحدة والحوار والتقارب بين المؤمنين لكثيرة على الاستقصاء، ولكن يمكن الإشارة إلى بعضها، وتوضيح أنها لم تقصر الأمر على الحوار بين المسلم وأخيه المسلم فقط؛ بل وسعت دائرة الأمر فجعلته يشمل التقارب والتعارف والمحاورة والمجادلة بين الإنسان وأخيه الإنسان، فلقد نبهت شريعة الإسلام الإنسانية جميعاً على ضرورة اتخاذ الحوار سبيلاً للتعايش، وبينت أنه سبيل سعادة الإنسان في مجتمعه، وأن بديل الحوار بين أفراد المجتمع أو بين المجتمعات المختلفة هو التحارب والتعادي، وذلك سبيل الشقاء والضلال.

إن تألف المسلمين ووحدهم دين وشريعة، أمرنا رب العالمين في قرآنه ونبينا محمد صلى الله عليه وسلم في سنته بالتآخي والتوحد، ونبد الفرقة والتعادي، وأمرنا ديننا بالتعاون على البر والتقوى، وألا نضل في السبل التي تفرقنا عن سبيل الله القويم.

ومن النصوص الشريفة في ذلك :

قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُون﴾ [الأنبياء: 92]

وقوله تعالى: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ فُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا﴾ [آل عمران: 103].

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِي نَقَضَتْ غَزَاهُمْ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَأَتْ تَنْتَحِدُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلَا بَيْنَكُمْ أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَى مِنْ أُمَّةٍ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللَّهُ بِهِ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ [النحل: 92].

وقوله تعالى: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأنعام: 153]

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [الأنفال: 46].

وقوله تعالى: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: 125].

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [العنكبوت: 46].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلَحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرُ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَى أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الْإِسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبَ بَعْضُكُم بَعْضًا أَجِبْتُ

أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ ﴿١٠﴾ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١١﴾ [الحجرات: 10 - 13]

وما رواه الثُّعْمَانُ بْنُ بَشِيرٍ رضي الله عنه، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: " مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادُّهِمْ وَتَرَاحُمِهِمْ وَتَعَاطُفِهِمْ مَثَلُ الْجَسَدِ إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالسَّهْرِ وَالْحُمَى " ⁽¹⁾.

وَعَنْ أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ رضي الله عنه، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: « الْمُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِ كَالْبُنْيَانِ، يَشُدُّ بَعْضُهُ بَعْضًا ». ثُمَّ شَبَّكَ بَيْنَ أَصَابِعِهِ ⁽²⁾.

وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: " يَدُ اللَّهِ مَعَ الْجَمَاعَةِ " ⁽³⁾.

وَعَنْ جُبَيْرِ بْنِ مُطْعِمٍ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ «لَيْسَ مِنَّا مَنْ دَعَا إِلَى عَصَبِيَّةٍ وَلَيْسَ مِنَّا مَنْ قَاتَلَ عَلَى عَصَبِيَّةٍ وَلَيْسَ مِنَّا مَنْ مَاتَ عَلَى عَصَبِيَّةٍ» ⁽⁴⁾.

فلو أن أتباع المذاهب الإسلامية جميعها تحققوا بما نصت عليه الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة من أخلاق واتبعوا ما دلت عليه من أوامر، لما شهدنا ما وقع بيننا من عصبية مذهبية وتنازع بالألقاب وتكفير وتفسيق وتبديع فيما بيننا، ولما تفرقنا بل توحدنا واعتصمنا بدين الله الجامع لنا في أصوله الكلية، ولتسامحنا وتعايشنا مع اختلافنا في الفروع والهوامش.

ولقد أسس المنهج الشرعي على البرهان والعقل والتدبر والتفكير، ولذلك فإن الحوار هو السبيل الوحيد لإيصال دعوة الحق إلى الناس، والحوار بين المذاهب الإسلامية مستمد من روح الشريعة الإسلامية، ومستوحى من مقاصدها الشريفة لتجاوز الاختلافات المذهبية والارتقاء إلى مستوى المعالجة العلمية، ودعوة الحوار التي انتقلت من دعوة التقريب هي دعوة تربط المسلمين برباط الأخوة الإسلامية، والالتقاء على الخير الذي يعتمد على الاجتهاد والحجة ونبد التعصب والتشردم والانغلاق، والترحيب بالرأي الآخر ما دام يعتمد على الحجة والدليل.

1 - أخرجه مسلم في صحيحه (كتاب البر والصلة والآداب . باب تراحم المؤمنين وتعاطفهم وتعاضدهم) 1999/4، رقم (2586).

2 - أخرجه البخاري في صحيحه (كتاب الأدب . باب تعاون المؤمنين بعضهم بعضا) 2/8 ، رقم (6095).

3 - أخرجه الترمذي في جامعه (كتاب الفتن . باب ما جاء في لزوم الجماعة) 4/466، رقم (2166).

4 - أخرجه أبو داود في سننه (كتاب الأدب . باب في العصبية) 4/494، رقم (5123).

فكرة التقريب بين المذاهب الإسلامية :

إن أتباع المذاهب والفرق الإسلامية لم يشعروا بحاجتهم إلى فكرة التقريب إلا في العصر الحديث، وذلك لأنهم كانوا يعيشون في مجتمع واحد يأخذ بعضهم عن بعض ويتبادلون المناظرات والمجادلات والمحاورات، وجميعهم كان يلتزم أخلاق الإسلام وآداب الحوار، فلا يعتدي أحدهم على الآخر ولا يضغنه ولا يسفّهه أو يكفره، ولكن الاختلاف ظل يتجذر بين المذاهب الإسلامية عبر التاريخ حتى غدا عصبية وصراعا وتمايزا، وعبث أعداء الدين بتلك الفوارق حتى صنعوا من المسلمين أطيافا وفصائل تحتاج لمن يدير لها حوارا ويدعوها للتقارب.

إن فكرة التقريب هي فكرة المقاومة الفكرية، المقاومة لفكرة الانقسام والتشردم، إن التقريب هو التأسيس للجذور العميقة تاريخيا وثقافيا بين المسلمين، فإن الإسلام دين عالمي جامع يعتمد على الفكرة ولا يحده مكان ولا زمان ولا عرق، فهو رحمة الله للعالمين بغير تفرقة، والتمسك به والسير بهديه هو طريق الخلاص لنا جميعا.

والعبء يقع كبيرا على مفكري أمة الإسلام وعلمائها، فالتوحد والتقارب يبدأ من الأفكار والمذاهب الدينية، فلن يتمكن الساسة أو عامة سكان بلداننا الإسلامية من التعاون والتوحد والتقارب طالما يرون بعض علماء المذاهب المتعصبين ينشرون بذور الخلاف، ويؤكدون دائما على التمايز عن الآخر، ورمي أصحاب المذاهب الأخرى بالتهم والزندقة، بناء على ذلك فلا بد أن يدرك علماء الدين أهمية الدور الذي يطلعون به في توحيد الأمة ولم شعثها، وتضييق دائرة الخلاف والنزاع المذهبي في المحيط العلمي، وعدم طرح هذه المسائل على العامة، كي تصفو نفوس المسلمين ويتعايشوا سويا بمحبة وتآخي.

والحوار والتقارب بين المسلمين يقوم على **الفكرة الإسلامية الجامعة والثقافة الموحدة**، وهو ما حدا بفضيلة الشيخ محمد تقي القمي السكرتير العام لجماعة التقريب أن يحكي حوارا جرى بينه وبين الإمام الشيخ المراغي شيخ الجامع الأزهر حول قضية مهمة تؤرق مضجع كل غيور على هذه الأمة العظيمة، وهي أن المسلمين لا يعرف بعضهم بعضا وأن الصلة بينهم منقطعة، ولا بد من تقريبتهم ثقافيا ليعرف كل ما عند الآخر، وبذلك يحصل التوحيد المنشود وترتفع المنازعات والخلافات في كل المسائل أو في أكثرها أو تقف على الأقل عند حدودها الحقيقية.

ومن كلامه: إن توحيد المسلمين ثقافيا لا ينافي أن تعمل كل طائفة من الطوائف الإسلامية، بما ثبت عندها واعتقدته، ما دام هذا لا يمس العقائد الأساسية، التي يجب الإيمان بها، ولكن من الواجب أن تعرف كل طائفة من المسلمين حقيقة عقائد الآخرين.

وهل من منكر أن خير اللقاء هو اللقاء عند الثقافة، الثقافة الصالحة لأن تكون ثقافة إسلامية بعيدة عن كل تعصب أعشى، ثقافة تحت ظل الدين.

والعلماء كلهم من أي مذهب من المذاهب الإسلامية استمدوا علومهم من الكتاب والسنة، واللغة العربية هي لغة الدين، وبما أن المصدر واحد واللغة واحدة فإن أقل تبادل ثقافي يكفي لأن تحترم كل طائفة ما عند الأخرى ولأن يجمع كثير من الخلاف الذي نحن في غنى عنه.⁽¹⁾

وكذلك فإن للتربية الدينية دور عظيم في غرس شجرة التسامح بين أرباب المذاهب، ذلك التسامح الذي يسمح بوجود الحوار وتحقيقه لأهدافه المرجوة، والتربية الدينية والروحية التي يقوم عليها علماء الأمة وفقهاؤها قادرة على جمع الناس على أصول الإسلام التي أقرت بها كل المذاهب، حيث تُوطن المسلمين على تقبل وجود خلاف فيما بينهم في بعض الشعائر أو الأفكار التي اختصاص بها كل مذهب من باب التأويل، والقاعدة العقائدية تقول: لا كفر مع التأويل، ولو خرق الإجماع.

وهو ما أشار إليه ابن رشد في كتابه "فصل المقال": فإن قال قائل: إن في الشرع أشياء قد أجمع المسلمون على حملها على ظواهرها وأشياء على تأويلها وأشياء اختلفوا فيها، فهل يجوز أن يؤدي البرهان إلى تأويل ما أجمعوا على ظاهره، أو ظاهر ما أجمعوا على تأويله؟ قلنا: أما لو ثبت الإجماع بطريق يقيني فلم يصح، وأما إن كان الإجماع فيها ظنيا فقد يصح. ولذلك أبو حامد وأبو المعالي وغيرهما من أئمة النظر: إنه لا يقطع بكفر من خرق الإجماع في التأويل في أمثال هذه الأشياء.⁽²⁾

ولقد عاش المسلمون طوال تاريخهم مع أرباب الملل والنحل المختلفة؛ تعايشوا مع أهل الكتاب ومع عبدة الأصنام أيضا، ولكن المسلمين كانوا دائما يراعون معتقداتهم فلا يثيرون ما يستفزهم أو يوقعهم في الحرج، فلم لا يتعايش المسلمون سوياً مع اختلاف مذاهبهم، وليعتقد كل منهم فيما يشاء دون أن يجرح الآخر أو يهاجمه أو يثير ما يستفزه!

ويجب أن نؤكد على أمر في غاية الأهمية، وهو أنه ليس المراد من التقريب مزج الآراء أو محو اختلافها وتنوعها، أو دمجها في مذهب واحد؛ لأن اختلاف أفهام الناس وتصوراتهم لما يعتقدون شيء جبلي فطري، إلا أنه غير مراد من تجربة التقريب ومشروعها، وذلك لأن فيه حجرا وتضييقا على حرية الفهم والتأويل والتصور، ولكن للتقريب غايات أخرى متعددة منها:

1 - مجلة "رسالة الإسلام" العدد الثالث للسنة الأولى مقال: "أمة واحدة وثقافة واحدة" ص 258.

2 - فصل المقال لابن رشد ص 35. تحقيق محمد عمارة، طبعة دار المعارف، الطبعة الثانية.

التلاقح العلمي والتوسع في المعرفة عن مذاهب المسلمين وأفكارهم، والمعرفة هي أول سبل الحوار والتقارب، فإن جهل بعضنا ببعض بث روح الخوف والوجل من فكرة التقارب نفسها.

ويتبع المعرفة دراسة كل مذهب من حيث ما يفرق ويصير نقطة تباعد وتنافر، وما يدعم فكرة الحوار والتقارب. ويتبع معرفة ذلك نشر مواضع الاتفاق والتقارب وإذاعتها، والتأكيد عليها دون غيرها من مواضع الخلاف والتباعد. ومن غايات التقارب وأهدافه أيضا تلاقي العلماء من كل مذهب وإدارة الحوار فيما بينهم بروح فيها أخوة وتسامح، مما ينعكس على العامة ويكون له أفضل الأثر في تربيتهم على تلك الروح .

وقد بحثت جماعة التقريب التي أنشئت بالقاهرة . وسوف نتحدث عن تجربتها بالتفصيل فيما بعد . عن تصورها لمفهوم التقريب بين المذاهب الإسلامية، وكيفية إدارة الحوار بين تلك المذاهب، في ردها على استفسار ورد من بلاد الحجاز جاء فيه :

(1) إن جماعة التقريب لا تريد المساس بالفقه الإسلامي، ولا إدماج مذاهبه بعضها في بعض، بل هي على النقيض من ذلك، ترى في هذا الاختلاف الفقهي مفخرة للمسلمين، لأنه دليل على خصوبة في التفكير، وسعة في الأفق، واستيفاء وحسن تقدير للمصالح التي ما أنزل الله شريعته إلا لكفالتها وصونها، وكل ما تبذله الجماعة من جهود في سبيل الفقه الإسلامي، إنما هو في دائرة خدمته وتنميته وتبسيط نوره الوهاج على شؤون الحياة الإسلامية كلها، وبحث المشكلات التي جدت وتجد ولم يتضح للناس حكم الله فيها.

(2) ولن تمد الجماعة يدها إلا لأرباب المذاهب الإسلامية التي تعتقد العقائد الصحيحة التي يجب الإيمان بها.

(3) وهي ترى أن بعض المنتسبين إلى المذاهب الإسلامية يجعلون لبعض المعارف والآراء التي لا صلة لها بالعقائد الصحيحة أهمية طاغية تدفعهم إلى التخاصم والتقاطع والتنازع بالألقاب ونسيان ما جمع الله عليه القلوب، وألف به بين المسلمين، وترى أن أعداء الإسلام والطامعين في استعمار بلاده وإذلال أهله يتخذون من هذه الخلافات أبوابا يلجئون منها إلى مقاصدهم الباغية، ويعملون كل ما في استطاعتهم على إذكاء نيرانها ليضربوا بعض المسلمين ببعض ثم يضربوهم جميعا.

(4) وتؤمن إيماناً عميقاً بأن من أهم الواجبات الدينية على كل ذي علم ورأي في شعوب المسلمين على اختلاف طوائفهم ومذاهبهم الإسلامية العمل على تبصير المسلمين بدينهم، وقطع أسباب الخلاف والتفرقة بينهم ببيان ما هو عقيدة يجب الإيمان بها، وما هو معارف لا يضر الخلاف فيها، وأن من بين هذه المعارف ما يظن أنه من العقائد وهو ليس منها.

(5) فالغرض من تأليف «جماعة التقريب بين المذاهب الإسلامية» هو: أن تكون مركزاً إسلامياً لهذه الفكرة، تتركز فيه جهود جميع المقتنعين بها في أنحاء العالم، شرقيه وغربيه، وتتجاوب لديه أصواتهم وأبحاثهم وآراؤهم في رفق وحسن تقبل، فيتهيأ لها جو من البحث العلمي الخالص على ضوء القواعد الإسلامية الصحيحة، وحينئذ تنجلي أمام المسلمين أسباب الاختلاف فيما وراء العقائد الدينية والأحكام التشريعية فيعالجونها، ويصلون في المسائل والنظريات الخلافية نفسها إلى الرأي الصحيح الذي يهدي إليه المنطق والدليل، فإذا بقي بعد ذلك ما لم تجتمع عليه القلوب أو تقطع به البراهين، كان أمره بعد ذلك هيناً لا ينبغي أن يفضي إلى التقاطع والتناكر والتقاذف، وإنما هو الخلاف في الفقه والفروع يعذر العلماء فيه بعضهم بعضاً ويتبادلون الاحترام والمودة والتعاون كما هو شأن المؤمنين.

وقد جسدت دار التقريب موقفها من المذاهب المختلفة حين طبعت ووزعت في موسم الحج جدولاً مفصلاً عن أحكام الحج على المذاهب المتعددة: الحنفي، والمالكي، الشافعي، والحنبلي، والإمامي، والزيدي، وقد راج هذا الجدول في البلاد المقدسة رواجاً عظيماً، ولفت أنظار كثير من المسلمين، إلى أن آراء فقهاءهم في فروع عبادتهم ليست من التباعد والخلاف بحيث توجد الخصومة والفرقة والتباغض فيما بينهم.⁽¹⁾

وعلى الطرف الآخر يؤكد العلامة الشيعي محمد الحسين آل كاشف الغطاء على نفس المفهوم للحوار والتقارب فيقول: من المقطوع به أن ليس المراد من التقريب بين المذاهب الإسلامية إزالة أصل الخلاف بينها، بل أقصى المراد وجل الغرض هو إزالة أن يكون هذا الخلاف سبباً للعداء والبغضاء، الغرض تبديل التباعد والتضارب بالإخاء والتقارب.⁽²⁾

1 - مجلة "رسالة الإسلام" العدد الأول للسنة الأولى ص 97.

2 - مجلة "رسالة الإسلام" العدد الثالث للسنة الثانية المقال "بيان إلى المسلمين" ص 268.

عوامل نجاح تجربة الحوار بين المذاهب الإسلامية:

إذا أريد للتقريب أن يكون مثمرًا فلا بد من مراعاة النقاط الآتية:

1 . الالتفاف حول القرآن الكريم، بلغته العربية الواضحة ، ومعانيه الصريحة ذات الدلالات القاطعة، وجعله دستوراً وحكماً فيما بين المذاهب المختلفة.

2 . إقامة تجربة الحوار والتقريب بين المذاهب بشكل فيه شمول، فلا تكون قاصرة على قاعات الدرس ، ومحاضر المؤتمرات وجلساتها ، تنشط بنشاطها وتنبو بخفوتها، ولكن يجب توسيع دائرة التقريب في وسائل عدة، فيجب أن تقوم حركة سياسية جامعة تتبنى فكرة التقريب وتدعو إلى الحوار والتعاون المشترك على البر والتقوى وتحقيق المصالح المشتركة بين الدول الإسلامية سواء التي تتبنى مذاهب مختلفة أو متفقة، وتأسيس عدد من وسائل الإعلام وتقنيات المعلومات الحديثة ، تتبنى كلها فكرة التوحيد والتجميع ومخاطبة العامة بلغة التسامح والتعايش والتقبل للآخر، فتكون فكرة التقريب حركة شاملة تنضم إليها صحف وقنوات فضائية وصفحات إلكترونية ومواقع انترنت وغير ذلك من وسائل الاتصال الحديثة، وتوسيع دائرة الأفراد المشتركين أيضاً في إشاعة الحوار والتقارب، فلا يكون الأمر قاصراً على علماء الدين من أتباع المذاهب بل تتسع الدائرة إلى طلاب الجامعات وعمال الحرف والصناعات والساسة والقادة والمفكرين والأدباء وغير ذلك، مما يحدث أثره في الترويج لفكرة الحوار و التقريب، وإكسابها الحيوية والديمومة.

ويلفت الشيخ محمد المدني النظر إلى أهمية الدور الذي يقوم به علماء الحوار والتقريب بين المذاهب الإسلامية في توسيع دائرة الحوار والتقريب حتى تشمل المدارس والمساجد والشوارع والأسواق، وكذلك ينضم إليها العامة حين يؤمنون بأهمية قضية الحوار من أجل التعايش والتعاون والمصلحة. وذلك بما نقله عن العدد الخامس من مجلة العروة الوثقى:

وكان من الواجب على العلماء قياماً بحق الوراثة التي شرفوا بها على لسان الشارع أن ينهضوا لإحياء الرابطة الدينية ويتداركوا الاختلاف الذي وقع في الملك بتمكين الاتفاق الذي يدعو إليه الدين، ويجعلوا معاهد هذا الاتفاق في مساجدهم ومدارسهم حتى يكون كل مسجد وكل مدرسة مهبطاً لروح حياة الوحدة ويصير كل واحد منهم كحلقة في سلسلة واحدة إذا اهتز أحد أطرافها اضطرب لهزته الطرف الآخر، ويرتبط العلماء والخطباء والأئمة والوعاظ في جميع أنحاء الأرض بعضهم ببعض ويجعلون لهم مراكز في أقطار مختلفة يرجعون إليها في شؤون وحدتهم ويأخذون بأيدي العامة إلى حيث يرشدتهم التنزيل وصحيح الأثر، ويجمعوا أطراف الوشائج إلى معقد واحد حتى يتمكنوا بذلك من شد أزر الدين .⁽¹⁾

1 - "كلمة التحرير" بمجلة "رسالة الإسلام" في عددها الثاني للسنة الأولى.

3 . إدارة عملية التقريب بشكل علمي ينظم حركة العمل الجماعي والاجتهاد المشترك، ويضع أهدافا قريبة وبعيدة في إطار خطة للعمل، ونقاط محددة في جدول زمني، مع مراقبة مستوى الأداء وقياسه، ويمكن للإدارة أن تشكل لجنة تتابع نتائج الحوار، ومدى تحقيقه الأهداف المنشودة، وتصدر دورية تشرح ما تم إنجازه من فعاليات وأبحاث ، تروج لفكرة التقريب في أوساط واسعة، وغير ذلك مما هو معروف في علم الإدارة.

ويدخل في إدارة الحوار الاتفاق مع المتحاورين على مكان الحوار وزمانه المناسبين، بحيث تتوفر فيهما أسباب الراحة والملائمة مع حالة المتحاورين، وكذلك تتفق مع موضوع الحوار وأهدافه.

أضف إلى ذلك أنه يجب أن تتمتع الإدارة القائمة على تجربة الحوار بالقبول والاحترام عند كل الأطراف، وكذلك يجب أن تتسم بالحياد والموضوعية.

4 . وضع منهج متفق عليه يلتزم به جميع من يديرون عملية الحوار والتقريب، وهذا المنهج يقوم على أسس ومبادئ، مثل: زيادة مساحات الاتفاق بين المذاهب، وتطوير الاجتهاد فيما يعود بالنفع على أتباع المذاهب، وترويج نقاط الاشتراك بين العامة والخاصة، وحصر النقاش والحوار حول نقاط الاختلاف في أوساط العلماء وفي معاهد التعليم، وفصل سياسة التآخي والتعاون المشترك حول المصالح والمبادئ عن أي تعصب مذهبي أو خلاف عقائدي، وإشاعة ثقافة التقريب لجذب أعضاء جدد يساهمون في تنمية الفكرة وتعضيدها، وإظهار الإسلام دائما بصورته النقية الخالية من أي تناقضات أو تضارب عند عرضه على غير المسلمين ودعوتهم إليه، فتكون الدعوة إلى الإسلام فقط، وترك الحرية لمن يعتنق الإسلام دين التوحيد في اتباع مذهب معين، عملا بمبدأ الإسلام فوق المذاهب والأمة فوق الطوائف.

فالمذاهب الإسلامية جميعها تتفق على أصول الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر واتباع النبي محمد صلى الله عليه وسلم والإيمان بما جاء في القرآن الكريم، وكذلك يتفقون على أصول الشعائر كالصلاة والصيام والحج والزكاة، فيجب أن يكون علماء الدين من كل مذهب حلقة وصل، وأداة تجميع وتقريب، لا أداة تفريق وتشتيت، ويجب ألا يصدروا خلافتهم وصراعاتهم أو مجادلاتهم إلى عامة الناس في المجتمعات الإسلامية، ويجب أن يتيحوا فرصة للسياسيين والاقتصاديين وغيرهم من أبناء الشعوب الإسلامية أن يتواصلوا ويتعاونوا فيما بينهم بغير خوف ولا وجل ولا حقد ولا ضغينة، ولتنشر أجواء من التسامح والقبول عند عامة الناس ليتعايشوا ويتشاركوا في البناء والعمران .

5 . نبذ فكرة التكفير والتفسيق، واحتواء كل اختلاف وتأويل يصدر من أي مذهب إسلامي، وإحسان الظن بكل مسلم متبع لظاهر النصوص الشرعية أو مؤول لها، والنظر إليه من منظور الاجتهاد الدائر صاحبه بين الصواب والخطأ، وليس بين الإيمان والكفر.

وتجربة التقريب يجب أن تتحاکم إلى الظاهر وإلى ما يقره أرباب المذاهب أنفسهم، فلا يُلزم فريق الآخر غير ما ألزم به نفسه، ولا يسى الظن به ، ويحمل كلامه على أسلم التأويلات وأوقفها وأقرها إليه.

6 . نبذ كل دعوة إلى العصبية المذهبية ، والتي تستلزم تخوين الآخر وتكفيره، بل تتعدى ذلك إلى محاربه ومعاداته وتجنب التعاون معه، ولقد أرشدتنا شريعة الإسلام إلى التعايش مع الآخرين المخالفين لنا في العقيدة والدين، وأمرتنا باحترام إنسانيتهم وتقدير حقوقهم علينا وواجباتنا نحوهم، بل أمرتنا باحترام مقدساتهم وعدم الاعتداء عليهم بالقول أو الفعل، فمن الأولى أن يقبل المسلم أخاه المسلم المخالف له في المذهب والتصور.

فينبغي أن ينعم المسلمون جميعا في بلادهم بما ينعم به غيرهم، سواء اتبعوا المذهب الغالب في البلد أو غيره، فالحقوق الإنسانية كفلتها الشريعة الإسلامية، ولا يسع أتباع أي مذهب أن ينكروا ذلك، فحق الحياة والكرامة والمساواة والحرية نصت عليه الشريعة في صريح نصوصها، وهي حقوق لعموم الإنسان المخلوق لله عز وجل، فلا يحل أبدا لمسلم أن يعتدي على أخيه المسلم المخالف له في المذهب .

7 - اعتماد الحوار كأهم وسيلة لتحقيق التقارب لغاياته وأهدافه، وليكن الحوار قائما على أسس من المعرفة والتعارف، ومن وضع مقدمات وأسس منطقية يمكن الاحتكام إليها في البرهان والاستدلال، وأن يكون الحوار بين أخوة يلين بعضهم لبعض، وألا يدفع جهود أحدهم وتعصبه لمذهبه أن يسفه من رأي أخيه ومذهبه.

قال تعالى: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ [النحل: 125].

8- أن يتحلى الحوار بين الأخوة بآداب الإسلام وأخلاقه ، فعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَيْسَ الْمُؤْمِنُ بِالطَّعَّانِ وَلَا اللَّعَّانِ وَلَا الْفَاحِشِ وَلَا الْبَذِيءِ»⁽¹⁾.

فيجب أن يخلو كل حوار أو خطاب بين أتباع المذاهب خاصة من يسعون في سبيل التقارب من أي فحش في القول، أو تنابز بالألقاب، أو طعن في دين أو عقل .

وهو ما أكد عليه العلامة الشيخ عبد الكريم بن جهيمان، وكان مدرس أنجال الأمير عبد الله بن عبد الرحمن آل سعود حيث قال: ونبز دعاة الحق بالألقاب المنفرة طريق مسلك منذ قدم الزمان، وهو طريق من طرق الدعاية السيئة التي يتبعها غالبا الرؤساء الدينيون والسياسيون الذين يرون في انتصار الحق وانتشاره نقصا من سلطاتهم أو هضما من مراتبهم أو تقليلا من معاشهم فيرسلون تلك الألقاب للعوام، فتتظلي عليهم وتروج

1 - أخرجه الترمذي في سننه (كتاب البر والصلة . باب اللعنة) 350/4، رقم (1977) .

فيما بينهم، وتكون سدا منيعا بينهم وبين فهم الحقائق، ولذلك ورد في الأثر "صلاح أمتي بصلاح العلماء والأمرأء". أه⁽¹⁾

9- يجب فصل تجربة الحوار والتقريب بين المذاهب الإسلامية عن الأوضاع السياسية السائدة في البلدان الإسلامية والتي تنتمي إلى مذاهب مختلفة، فإن السياسة والحكام كثيرا ما جنوا على مشروعات الحوار والتقريب؛ وكذلك يجب ألا تعتمد تجربة الحوار على العلماء الرسميين، فإن تجربة الحوار التاريخية والتي أدارها علماء دين اشتغلوا في ديارهم بالسياسة، أو ارتبطوا بشكل أو بآخر بالحكام والأمرأء في بلدانهم، ظلت مقيدة بالأوضاع السياسية بين تلك البلدان أو بين هؤلاء الحكام، وحتى تتحرر عملية الحوار والتقارب وتزدهر بشكل فيه ديمومة يجب توسيع دائرتها كما قلنا بتعاون علماء مستقلين تماما عن السياسة، وباشتراك علماء كما يصح القول شعوبيون، يتمتعون بقبول وشعبية بنفس القدر الذي يحتلون به مكانة علمية مرموقة تجعلهم أصحاب حجة وبرهان وقادرين على إدارة حوار علمي، ويكونون أصحاب كلمة مسموعة بين العلماء في شتى المذاهب، أي لم يسبق أن تورطوا في حوار تنازري أو عدائي تجاه الآخرين .

ويؤكد الشيخ محمد تقي القمي على التأثير السلبي للسياسة على حركة الحوار بين المذاهب الإسلامية والتقارب بين أهلها. فقال: إن مشكلة الحكم والحكام التي كانت علة العلل في إثارة العواطف والصراع الطائفي، ليست والحمد لله مشكلة اليوم، لو استثنينا بقعة من البقاع الإسلامية لا يزال حكامها يهتمون بدعايات من شأنها بث روح الفرقة، نسأل الله أن يكلل بالنجاح جهودنا معهم. أه⁽²⁾

ويشير الشيخ محمد عبد اللطيف دراز إلى دور إفساد قام به أصحاب المصالح السياسية، حيث عملوا على الدس والتدليس في النصوص الدينية والمفاهيم المذهبية كي يستتب لهم الحكم، ويدين لهم عموم الناس بالولاء والخضوع، لأنهم يصورون أنفسهم لدى الناس كحراس للدين الصحيح وحماة للعقيدة السليمة التي تمثل المذهب المعين، ويشعر الناس بالخوف والوجل من إخوانهم المسلمين أصحاب المذاهب المخالفة فيعيشون بعزلة، تسهل السيطرة عليهم، بل ربما يزج الساسة بعموم الناس وعلمائهم في معارك مذهبية طائفية تحول بشكل دائم دون أية محاولة أو تجربة للحوار والتقارب بين المذاهب الإسلامية.

قال الشيخ دراز: وقد غذيت هذه الخلافات، وهذه السياسات بكثير من الروايات الملفقة، والأحاديث الموضوعية، والأخبار المفتراة، وامتألت كتب التفسير والمغازي والمناقب بما لا يحصى من الأكاذيب، وأصبح

1 - مجلة "رسالة الإسلام" العدد الثالث من السنة الأولى المقال "لا تنابدوا بالألقاب" ص 277.

2 - مجلة "رسالة الإسلام" العدد الأول للسنة الثالثة ، المقال: "جولة بين الآراء" ص 35.

بجوار كل آية في كتاب الله رواية من الروايات تحمل عليها، بل تلوى إليها، وفسر القرآن بما يوافق أصحاب الآراء، وقبل من الأحاديث ما يؤيدهم وطعن فيما يخالفهم. أهـ⁽¹⁾

1 - مجلة "رسالة الإسلام" العدد الثالث للسنة الأولى، المقال: "الإسلام الأزهر التقريب" ص233.

تجربة دار التقريب بين المذاهب الإسلامية بالقاهرة:

تَشَكَّلَ أول مجلس إدارة لدار التقريب في القاهرة عام ١٩٤٧م، وقد ضم عشرين عضوا من كبار علماء الأمة؛ مثلوا المذاهب الإسلامية السنية والشيعة، فمن الشيعة الإمامية كان العلامة محمد تقي القمي، والذي قَدِمَ من إيران إلى مصر لأول مرة في عام ١٩٣٧م، والتقى بكبار شيوخها، خصوصا الشيخين: محمد مصطفى المراغي شيخ الأزهر، وعبد المجيد سليم الذي كان مفتيا حينئذ وصار شيخا للأزهر فيما بعد، وتشكلت الفكرة من خلال حوارات دارت بينهم في هذا الشأن.

وَضُمَّت جماعة التقريب أيضا اثنان آخران من شيوخ الأزهر، هما الشيخ مصطفى عبد الرزاق، والشيخ محمود شلتوت، وانضم للجماعة من هيئة كبار العلماء بالأزهر الشيخ محمد عبد اللطيف دراز وكيل الأزهر، والشيخ عيسى منون، والشيخ حامد محيسن، والشيخ محمد يوسف موسى، كما انضم للجماعة الشيخ حسن البنا رئيس الإخوان المسلمين، والشيخ عبد الوهاب خلاف، والشيخ علي الحفيف، والشيخ محمد المدني وكيل الأزهر، والتحق بهؤلاء الشيخ محمد الغزالي، والشيخ أحمد حسن الباقوري، والشيخ محمد متولي الشعراوي، والشيخ عبد المتعال الصعيدي، والشيخ محمد أبو زهرة، والحاج أمين الحسيني مفتي فلسطين، ومن العراق الشيخ محمد حسين آل كاشف الغطاء، والسيد عبد الحسين شرف الدين، ومن لبنان الشيخ محمد جواد مغنية، وغيرهم.

وَمَثَّلَ الشيعة الزيدية في جماعة التقريب اثنان هما: علي بن إسماعيل المؤيد مندوب اليمن بمصر، والقاضي محمد بن عبد الله العمري رئيس مجلس الجامعة العربية في الدورة الحالية، وكان القاضي عبد الله الجرافي الصنعاني مندوب وزارة المعارف اليمنية بمصر يحضر جلسات التقريب نائبا عنه، وانضم إلى جماعة التقريب فيما بعد من علماء الزيدية السيد الحسن بن علي بن إبراهيم وزير الدولة باليمن.

ورَأَس الجمعية في أول تأسيسها أحد كبار المصلحين في مصر آنذاك، هو محمد علي علوبة باشا الذي كان وزيرا في عدة حكومات (للأوقاف والمعارف)، وعيّنته مصر أول سفير لها في باكستان.

وعلى الرغم من أن هذه الحركة كانت رائدة في فكرتها إلا أنها قامت في هذه الفترة بدور عظيم ومجهود مشكور، وذلك بفضل النخبة والكوكبة من عظماء الفكر والفقهاء والأدباء الذين شاركوا في تأسيسها وتبني أفكارها، وقد عملت هذه الحركة وفق خطة منهجية لنشر ثقافة التقريب على مستوى الأصول والفروع، وقد حققت عبر مجلتها "رسالة الإسلام" نجاحا في إزالة الحواجز النفسية بين أرباب المذاهب الإسلامية المختلفة وفتح باب للحوار فيما بينهم، وقد كان للأزهر الشريف بعلمائه الكبار دور كبير في إنجاح هذه التجربة.

واستطاعت جماعة التقريب بأدواتها البسيطة المتمثلة في مجلة "رسالة الإسلام" أن تفعل ما عجزت عنه النخبة المعاصرة من علماء الدين في إفشاء روح التسامح وإقامة عملية حوار وتقارب بين المذاهب الإسلامية،

رغم ما تمتعت به في العصر الحديث من ثورة التكنولوجيا والاتصالات، وذلك فضلا عن الدور السلبي الذي قامت به بعض الوسائل الإعلامية والفضائية في توسيع الهوة بين المذاهب الإسلامية، وبث الفرقة بين العلماء والعوام، حتى غلب التصارع والتعارك والتناوب على الحوار والتقارب، وانكفى كل مذهب على نفسه يوجه الخطاب إلى أتباعه ويعمق بداخلهم جذور التمايز والفرقة.

بل إن دار التقريب تطلعت لهدف أسمى من مجرد الحوار والتقريب، فقد صبت إلى جمع كلمة المسلمين باختلاف طوائفهم ومذاهبهم في رابطة أو جامعة للشعوب الإسلامية تتجاوز حدود مصر، فقد نصت في المادة الخاصة بأغراض الجماعة على أن من تلك الأغراض السعي إلى إزالة ما يكون من نزاع بين شعبين أو طائفتين من المسلمين والتوفيق بينهما، وفكرة الجامعة الإسلامية روج لها من قبل العالمان الجليلان: جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده في مجلة العروة الوثقى، وتظهر هذه الفكرة في مقال بعنوان "هل من جامعة إسلامية" نشر في العدد الرابع في السنة الأولى من مجلة رسالة الإسلام، كتبه القاضي محمد بن عبد الله العمري وكيل وزارة خارجية المملكة المتوكلية اليمنية.

وكذلك قدّم الشيخ عبد العزيز عيسى اقتراحا بإنشاء معهد للدرس والبحث، على نمط المعاهد التي تنشئها الأمم الراقية لتبحث في ناحية من نواحي الصحة أو الاجتماع، وتكون مهمة هذا المعهد . الذي يقتصر على الباحثين والعلماء دون طلاب يتعلمون . أن يبحث في شئون الطوائف والبلاد الإسلامية المعاصرة من حيث الفكرة الدينية عقيدة وشريعة ومعارف كلامية، وأن ينظر في علاقة أهلها بالمذاهب السابقة، ومدى هذه العلاقة، وأن يفحص ما عسى أن يكون عندها من مؤلفات ورسائل ومقالات ، وأن يتابع في ذلك الخاصة من أهل العلم والفكر، ويعرف لم يختلف هؤلاء مع العامة فيما يتعصبون له، ويجعل لكل طائفة وبلد سجلا خاصا يحوي جميع البحوث والمعلومات التي تتعلق بهذه الطائفة أو بهذا البلد، ويحوي مقارنات بين الماضي والحاضر إلى غير ذلك من الدراسات العلمية المنظمة التي تصور لكل من يريد العلم الصحيح أو الحكم الصادق صورة الحياة الدينية في كل ناحية من نواحي الأمة الإسلامية، ولدى كل طائفة تتسبب إليها.

وبذلك يمكننا في سهولة ويسر أن نعرف أوجه الوفاق والخلاف، وأن نصلح ما أفسده الدهر، ونحقق ما زوره التاريخ، وننشر في ربوع كل دولة ما عند الأخرى، فيتبادل المسلمون الثقافة الصحيحة ويعرف بعضهم بعضا على حق، وتزول من بينهم الجفوة والقطيعة، وبأخذوا سبيلهم إلى الوحدة والألفة التي لا يصلح أمرهم إلا عليها⁽¹⁾.

1 - نحو مجتمع إسلامي موحد: مسألة التقريب بين المذاهب الإسلامية أسس ومنطلقات، مقال: اقتراح على الأزهر ص116.

ولقد نجحت التجربة المصرية في التقريب حينما ظهر مجمع البحوث الإسلامية عند تشكيله في أوائل الستينيات وهو يضم ممثلين للمذاهب الإسلامية الثمانية؛ حيث بني تكوين المجمع على أن يكون عشرون عضوا من الخمسين من خارج مصر.

ولقد توقف نشاط دار التقريب بين المذاهب الإسلامية بالقاهرة تماما منذ قيام الثورة الإسلامية في إيران عام 1979م، حتى قررت مشيخة الأزهر الشريف إعادة فتحها ومزاولة نشاطها في أواخر عام 2006م، وتم اختيار الشيخ محمود عاشور، وكيل الأزهر السابق، رئيسا لهذه الدار عن الجانب السني، والشيخ عبد الله القمي الإيراني، عن الجانب الشيعي سكرتيرا عاما لها، وتقرر أن تضم أعضاء من كافة أنحاء العالم الإسلامي.

مجلة "رسالة الإسلام" :

سوف نوسع الكلام عن مجلة رسالة الإسلام، لأنها وبحق تُعدُّ تجربة عملية ناجحة لإدارة الحوار بين المذاهب الإسلامية، وهي رغم تقدمها إلا أن الأفكار التي طرحتها والمبادئ التي أرستها، وروح التسامح التي أشاعها العلماء الذين اشتركوا في تدشينها، لتدفعنا إلى دراستها والعروج عليها .

فقد أصدرتها جماعة التقريب لتعبر عن أفكارها وأهدافها، وعرفت كما كتب على غلافها بأنها مجلة إسلامية عالمية تصدر عن دار التقريب بين المذاهب الإسلامية بالقاهرة، وكان يُكتب على صفحة الغلاف قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: 92]، وهي مجلة فصلية صدر عددها الأول في ربيع الأول 1368هـ يناير 1949هـ ، وظلت تصدر طيلة خمسة عشر عاما.

وكان أول رئيس تحرير للمجلة هو الشيخ محمد محمد المدني، وقد كتب عن أهداف المجلة فقال:

أرادت أن توظف في نفوس المسلمين الشعور بأنهم أمة واحدة ، وأن بينهم على اختلاف ديارهم وشعوبهم وطوائفهم عروة لا تنفصم، وصلة لا تنقطع، وهي : "الأخوة الإسلامية".

أرادت أن تربط بين ماضيهم وحاضرهم، وأن تحيي أجدادهم ، ولا تنفض الغبار عن مفاخرهم، وتعلم شبابهم الناشئ أن الخير كل الخير في ثقافتهم، وأن النجاح كل النجاح في مثلهم وأخلاقهم. أهـ⁽¹⁾

ولقد أصدرت المجلة بياناً للمسلمين كتبه وكيل الجماعة فضيلة الشيخ عبد المجيد سليم ، أشار البيان إلى أن الدين الإسلامي قائم على نوعين من الأحكام:

أحدهما: أحكام ثابتة، يجب الإيمان بها، ولا يسوغ الاختلاف فيها وليس من شأنها أن تتغير بتغير الزمان والمكان، ولا أن تخضع لبحث الباحثين، وذلك بأنها ثابتة عن الله تعالى بطريق يقيني لا يحتمل الشك، واضحة في معانيها، ليس فيها شيء من الإبهام والغموض.

الثاني: أحكام اجتهادية نظرية مرتبطة بالمصالح التي تختلف باختلاف ظروفها وأحوالها، أو راجعة إلى الفهم والاستنباط اللذين يختلفان باختلاف العقول والأفهام، أو واردة بطريق لا يرقى إلى درجة العلم واليقين، ولا يتجاوز مرتبة الظن والرجحان.

ثم عبر فضيلة الشيخ عن النقلة التي شهدتها الأزهر من عهد كان التعصب المذهبي والتقليد يسيطران على طلاب العلم فيه، إلى أن استطاع الحوار أن يقرب بين المذاهب ويجعل العالم والمتعلم يبحث في الأدلة ويدور معها بدون تعصب، فقال:

1 - مجلة "رسالة الإسلام" بداية العدد الأول للسنة الأولى في كلمة التحرير.

ولقد أدركنا في الأزهر على أيام طلبنا العلم عهد الانقسام والتعصب للمذاهب، ولكن الله أراد أن نحيا حتى نشهد زوال هذا العهد وتطهر الأزهر من وبائه وأوضاره، فأصبحنا نرى الحنفي والشافعي والمالكي والحنبلي إخوانا متصافين وجهتهم الحق، وشرعتهم الدليل، بل أصبحنا نرى بين العلماء من يخالف مذهبه الذي درج عليه، في أحكامه لقيام الدليل عنده على خلافه. ⁽¹⁾

وهو عين ما أكده الملحق الذي كان يصدر في آخر كل عدد تحت مسمى "صوت التقريب" حيث فُصِّل ما تعرض له الفكر الديني عند المسلمين في تاريخه من دخول التعصب المذهبي والتقليد المذموم:

وجاءت بعد ذلك طبقات من المقلدين والمتعصبين للمذاهب، كلت همهم عن حمل ما كان يحمله سلفهم من العلم والنظر، وصادف ذلك عهود الضعف السياسي وانقسام الأمة الإسلامية إلى دويلات صغيرة لا تربطها رابطة، ولا تجمعها جامعة، ومن شأن الضعف السياسي. إذا أصيبت به أمة. أن يخيّل إلى أبنائها أنهم أقل من سواهم قوة، وعلمًا، وتفكيرًا، وأن تركد معه ريح العلم ويفتر نشاط العلماء.

وبهذا تأثر أكثر المشتغلين بالفقه، فحكموا على أنفسهم وعلى جميع أهل العلم في زمانهم بأنهم ليسوا أهلاً للنظر والاستنباط، ولا لفهم كتاب الله وسنة رسوله، ومن ثم حكموا بإغلاق باب الاجتهاد، وترتب على لك أن وقف الفقه وجمد، وأن تعصب كل منهم لرأي إمام وزعم أنه الحق، وأن ما سواه باطل وأسرفوا في ذلك إسرافاً بعيداً حتى كان منهم من لا يصلي وراء إمام يخالفه في مذهبه ومن لا يزوج ابنته لفلان أو يتردد في أكل ذبيحة فلان، أو في قبول قضاء فلان لمجرد أنه يخالفه المذهب. ⁽²⁾

وفي مقابل ما ذكره فضيلة الشيخ عبد المجيد سليم عن نوعين من الأحكام: الثابتة والاجتهادية، يفرق لنا الشيخ القمي بين صنفين من الخلاف: خلاف مذموم وغير مقبول، وخلاف مقبول، فقال: هناك فرق بين خلاف وخلاف: هناك خلاف تمليه طبيعة التفكير وتقتضيه سنن الاجتماع، ونحن نقبله ونرضاه، وهناك خلاف يصطنع اصطناعاً، ونحن نرفضه ونأباه.

إننا نقبل الخلاف الفكري ما دام في دائرة معقولة، ونرحب بالخلاف المذهبي لأنه وليد آراء اجتهادية مرجعها الكتاب والسنة أو ما أعطاه الكتاب أو السنة قوة الحجية، ونرحب بما عند الشيعة وأهل السنة، لأنهما تؤمنان بما يجب على المسلم أن يؤمن به، وإن اختلفتا في مسائل فقهية، وتميزتا في مسألة الولاية والخلافة، ونرحب كذلك بالمعارف الكلامية، لأنها ميدان من ميادين التفكير للمسلم أن يجول فيه.

1 - مجلة "رسالة الإسلام" العدد الأول للسنة الأولى ص 9 .

2 - مجلة "رسالة الإسلام" العدد الأول للسنة الأولى ص 90.

نحن نرحب بهذه الخلافات كلها، بل نعترف كمسلمين بالكثير منها: لأنها إن دلت على شيء فإنما تدل على الحرية الفكرية؛ ولأنها إن أحسن النظر إليها، تسعد الأمة وتكفل رقيها وتبقى على سلامتها، إن هذه الخلافات في جوهرها تنبئ عن معنى الوفاق فهي ترتبط بأصل واحد هو الكتاب والسنة....

أما الخلاف الذي لا نرحب به ولا نقبله، بل نرفضه ونقاومه، فهو الخلاف الذي يقوم على الكراهية والبغضاء، وتغذية الشبه والأوهام، ويوجد البلبلة في صفوف الأمة، ويؤدي إلى تفريق كلمة المسلمين، ذلك خلاف لا يتفق والخلق الإسلامي، ولا يستند إلى المعارف الإسلامية، حمل لواءه مؤلفون كتبوا قبل التثبيت تارة، وبداعي الغرض والهوى تارات، فسودوا صحيفة الشيعة في نظر أهل السنة، وسودوا صحيفة أهل السنة في نظر المتشيعين، بعضهم خلط بين أهل السنة والنواصب، وأكثرهم خلطوا بين الشيعة والغلاة، بينها وبين الفرق البائدة، وألصقوا بها آراء لا تمت إليها بصلة، بل الشيعة منها براء⁽¹⁾.

ويحدثنا الشيخ محمد الحسين آل كاشف الغطاء عن طبيعة الخلاف بين السنة والشيعة فيقول: إن أعظم فرق جوهرية، بل لعله الفارق الوحيد بين الطائفتين هو قضية الإمامة، فالشيعة ترى أن الإمامة أصل من أصول الدين، وهي رديفة التوحيد والنبوة وأنها منوطة بالنص من الله ورسوله، وليس للأمة فيها من الرأي والاختيار شيء، كما لا اختيار لهم في النبوة، بخلاف أهل السنة، فهم متفقون على عدم كونها من أصول الدين، ومختلفون بين قائل بوجوب نصب الإمام على الرعية بالإجماع ونحوه، وبين قائل بأنها قضية سياسية ليست من الدين في شيء لا من أصوله ولا من فروعه.

ثم قال: ولكن مع هذا التباعد الشاسع بين الفريقين في هذه القضية، هل تجد الشيعة تقول: إن من لا يقول بالإمامة غير مسلم، كلا ومعاذ الله، أو تجد السنة تقول: إن القائل بالإمامة خارج عن الإسلام. لا وكلا، إذن فالقول بالإمامة وعدمه لا علاقة له بالجامعة الإسلامية وأحكامها، من حرمة دم المسلم وعرضه وماله ووجوب أخوته، وحفظ حرمة وعدم جواز غيبته، إلى كثير من أمثال ذلك من حقوق المسلم على أخيه.

ثم ذهب يجيب عما وقعت فيه الشيعة من جواز سب الصحابة، والنيل من عرض الخلفاء من قبل علي رضي الله عنهم فقال: لو تبصرنا قليلا ورجعنا إلى حكم العقل بل والشرع أيضا لم نجد مقتضيا للعداء أيضا.

أولاً: ليس هذا من رأي جميع الشيعة، وإنما هو رأي فردي من بعضهم، وربما لا يوافق عليه الأكثر، كيف وفي أخبار أئمة الشيعة النهي عن ذلك، فلا يصح معاداة الشيعة أجمع لإساءة بعض المتطرفين منهم.

ثانياً: أن هذا على فرضه لا يكون موجبا للكفر والخروج عن الإسلام، بل أقصى ما هناك أن يكون معصية، وما أكثر العصاة في الطائفتين، ومعصية المسلم لا تستوجب قطع رابطة الأخوة الإسلامية معه قطعاً.

1 - نحو مجتمع إسلامي موحد: مسألة التقريب بين المذاهب الإسلامية، مقال: خلاف نرضاه وخلاف ناباه ص 119.

ثالثاً: قد لا يدخل هذا في المعصية أيضاً ولا يوجب فسقا إذا كان ناشئاً عن اجتهاد واعتقاد، وإن كان خطأ، فإن من المتسالم عليه عند الجميع في باب الاجتهاد أن للمخطئ أجراً وللمصيب أجرين، وقد صحح علماء السنة الحروب التي وقعت بين الصحابة في الصدر الأول كحرب الجمل وصفين وغيرهما، بأن طلحة والزبير ومعاوية اجتهدوا وهم وإن أخطئوا في اجتهداهم، ولكن لا يقدر ذلك في عدالتهم وعظيم مكانتهم، وإذا كان الاجتهاد يبرر ولا يستنكر قتل آلاف النفوس من المسلمين وإراقة دمائهم، فبالأولى أن يبرر ولا يستنكر معه - أي مع الاجتهاد - تجاوز بعض المتطرفين على تلك المقامات المحترمة⁽¹⁾.

ويرجع الشيخ محمد آل كاشف الغطاء السبب في تعمق جذور الخلاف بين السنة والشيعة إلى الخلط والتليس في النقل والتعبير عن حقيقة المذهب بإغفال المصادر الأصيلة المعبرة عن المذهب واللجوء إلى مصادر فرعية، مما يصعب إنجاح أي تجربة للحوار أو التقارب بين تلك المذاهب، فقال:

ما زال أهل العلم والنظر والدراسات الصحيحة يعنون أكبر العناية بالمصادر التي يعتمدون عليها في بحوثهم، ويستندون إليها في أحكامهم، ومن المعهود أن رجال الفرق، وأهل العصبية للمذاهب، ينقلون عن مخالفيهم آراء قد لا يعرفها هؤلاء المخالفون، وقد يعرفونها على صورة أخرى تختلف اختلافاً قريباً أو بعيداً عن الصورة المنقولة، وأنهم قد يأتون باستدلالات لمذهب مخالفيهم يرجون له، في ظاهر الأمر، ويوغلون في تفصيلها والعناية بدقائقها، ليوهوا الناس أنها لمخالفهم، ثم يكرون عليها بالإبطال والتزييف والطعن والتجريح فلا تلبث أن تنهار.

أقول هذا لأنني تتبعته كثيراً مما يكتبه الكتاتيب عن الشيعة إلى عهد قريب فوجدته مأخوذاً من ابن خلدون الذي كان يكتب وهو في أقصى المغرب والشيعة ما هم إلا طائفة من طوائف المسلمين، ومذهب من مذاهب الإسلام، يتفقون مع سائر المسلمين في الأصول، وإن اختلفوا معهم في بعض الفروع.

ومن الأمثلة التي تدل على عدم الثبوت: ما يزعمونه من أن الشيعة تقول: إن النار محرمة على الشيعي إلا قليلاً وكتب الشيعة جميعاً نادي بأن الله خلق الجنة لمن أطاعه ولو كان عبداً حبشياً والنار لمن عصاه ولو كان سيداً قرشياً، والمسلمون جميعاً يقرأون قوله تعالى: ﴿فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره﴾

وما يزعمونه من أن النصرانية ظهرت في التشيع في قول بعضهم: إن نسبة الإمام إلى الله كنسبة المسيح إلى الله. وهذا قول مرسل بغير سداد، ولم يعين قائله من الشيعة، فإن كان المراد ما يسموهم غلاة الشيعة كالخطابية والغرابية والعلياوية والخمسة والبزيعية، وأشباههم من الفرق المالكة المنقرضة التي نسبتها إلى الشيعة من الظلم الفاحش، وما هي إلا من الملاحدة والقرامطة ونظائرهم، فإن الشيعة الإمامية وأئمتهم يبرأون من

1 - نحو مجتمع إسلامي موحد: مسألة التقريب بين المذاهب الإسلامية، مقال: بيان للمسلمين ص 22-23.

تلك الفرق براءة التحريم، وليس دينهم إلا التوحيد المحض ، وتنزيه الخالق عن مشابهة المخلوق، أو ملايسة له في صفة من صفات النقص والإمكان ، والتغير والحدوث.

وإن أمر الرجعة ليس إلا كبعض أنباء الغيب وحوادث المستقبل واشراط الساعة مثل نزول عيسى من السماء، وظهور الدجال وخروج السفياي وأمثالها من القضايا الشائعة عند المسلمين ، وما هي من أصول الإسلام في شيء، وليس إنكارها خروجاً منه ، ولا الاعتراف بها بذاته دخولا فيه، وكذلك حال الرجعة عند الشيعة ليس التدين بها بلازم، ولا إنكارها بضار.

وضرب مثلاً شبه به موقف من ينقل عن الشيعة أخباراً غير ثابتة أو صحيحة . يريد تسويد الأوراق والتلهي ببعض الحديث فنقل عن الأصفهاني في كتابه المحاضرات: إذ يقول: سئل رجل كان يشهد على آخر بالكفر عند جعفر بن سليمان، فقال : إنه معتزلي ناصبي حروري جبري رافضي، يشتم علي بن الخطاب، وعمر بن أبي قحافة، وعثمان بن أبي طالب وأبا بكر بن عفان، ويشتم الحجاج الذي هدم الكوفة على أبي سفيان، وحارب الحسين بن معاوية يوم القطائف .

فقال له جعفر بن سليمان: قاتلك الله. ما أدري على أي شيء أحسدك؟ أعلى علمك بالأنساب؟ أم بالأديان؟ أم بالمقالات. أه⁽¹⁾

وبناء عليه يجب إقامة الحوار على مبدأ التعارف ، وأن يتعرف كل فريق على الآخر ، ويستمع إليه ، ويصل إلى حقيقة مذهبه، فلا يكون الأمر مقصوراً على ما تتداوله العامة من معلومات أو شائعات عن الآخرين، وحتى يصل العلماء إلى الحقيقة لابد أن يعتمدوا على الحقائق الموثقة ومن مصادرها وطرقها السليمة. وبهذا التعارف يمكن الاتفاق بين المذاهب الإسلامية على أمور مهمة وهي: التفريق بين الأصول والفروع، وبين الفرائض والنوافل، وبين المتفق عليه والمختلف فيه، وبين الشائعات والحقائق، وبين سلوك العامة وآداب الشريعة .

وفي نفس السياق يدعو الشيخ عبد العزيز عيسى إلى التثبت من المصادر الأصلية قبل الحكم على المذهب، حتى يتضح لنا الأمر ونفرق بين الغلاة المتشددين وبين التيار الوسطي المعبر عن غالبية المذهب، قال في مقاله "اقتراح على الأزهر":

فمن الواجب إذن أن ندرس قبل أن نحكم وأن ندرس الجديد ولا نكتفي بالقديم، وأن نعلم عن يقين ما الذي تحول وما الذي بقي دون أن يتحول، وأن نتابع الأفكار من مصادرها الأصلية، ومن معينها الذي تنبع

منه، وأن نفرق بين ما يراه الخاصة الذين لهم حق التحدث باسم العلم والفكر، والرأي والمذهب، وبين العامة الذين ليس لهم إلا التقليد والتعصب ووراثة الآراء دون وقوف عند ما يعطيه الدليل أو يهدي إليه البحث. أهـ

ويدافع الشيخ محمد المدني عن النجاح الذي حققته جماعة التقريب في إدخال الفقه الجعفري إلى حلقة الدرس بالأزهر الشريف، وهي الخطوة التي أثارت حفيظة كثير من المتشددین والرافضين لمد جسور الحوار والتقارب مع المذهب الشيعي، حيث تساءلوا: كيف تدخلون فقه الشيعة في الأزهر، مع أن هذا المذهب هو مذهب الذين يعتقدون أن جبريل إنما بعث بالرسالة إلى علي فأخطأه، ونزل بها على محمد، وأن عليا قد حل فيه جزء من الإله؟

فيرد عليهم الشيخ محمد المدني فيقول: إن كلمة «الشيعة» تطلق على عشرات المذاهب التي تنسب إلى الإسلام حقاً أو باطلاً، وبعض هذه المذاهب ضال منحرف عن الأصول الإسلامية، وبعضها مستمسك بما يجب الإيمان به، مثله في ذلك كمثل مذاهب السنة، وإن خالفهم في بعض الفروع الفقهية أو النظريات والمسائل التي هي من قبيل المعارف الكلامية، والفريق الأول من المتسمين باسم الشيعة وهم الضالون المنحرفون، لا يعدون من أهل الإسلام وإن ادعوه؛ لأن العبرة في ثبوت الإسلام إنما هي بالإيمان بأصول العقائد الإسلامية، وعدم إنكار ما هو معلوم من الدين بالضرورة، وهؤلاء ليسوا كذلك، وقد انقضوا ولم يعد لهم أثر في العالم الإسلامي، ولو فرضنا أن لهم بقية في كهف من الكهوف أو طرف من الأطراف فليسوا منا ولسنا منهم، وهم كفار خارجون على ملة الإسلام ملعونون من أهل السنة ومن الشيعة⁽¹⁾.

ونختم القول عن جماعة التقريب ومجلتهم رسالة الإسلام بذكر ما سموه القانون الأساسي لجماعة التقريب:

المادة الثانية: أغراض الجماعة هي:

أ - العمل على جمع كلمة أرباب المذاهب الإسلامية "الطوائف الإسلامية". الذين باعدت بينهم آراء لا تمس العقائد التي يجب الإيمان بها .

ب - نشر المبادئ الإسلامية باللغات المختلفة وبيان حاجة المجتمع إلى الأخذ بها .

ج - السعي إلى إزالة ما يكون من نزاع بين شعبين أو طائفتين من المسلمين والتوفيق بينهما.

المادة الثالثة: تسلك الجماعة من السبل ما تراه محققاً لأغراضها ومنها :

1 - نشر الكتب والرسائل.

1 - مجلة الأزهر الصادرة في جمادى الآخرة سنة 1379هـ. وانظر: رجة البعث في كلية الشريعة، للمؤلف، بدون ذكر طبعة أو تاريخ (ص4-7).

- 2 - الدعوة بطريق الصحف والمحاضرات والإذاعات اللاسلكية.
- 3 - تبادل النشرات مع الجماعات الدينية والثقافية في مختلف الهيئات الإسلامية.
- 4 - عقد مؤتمرات إسلامية عامة تجمع زعماء الشعوب الإسلامية في الأمور الدينية والاجتماعية.
- 5 - العمل على أن تقوم الجامعات الإسلامية في جميع الأقطار بتدريس فقه المذاهب الإسلامية حتى تصبح جامعات إسلامية عامة.

تجربة الإباضية في التقريب بين المذاهب الإسلامية:

عاشت فرقة الإباضية في تاريخها نوعا من العزلة والانغلاق على نفسها، وسبب ذلك نسبتها إلى الخوارج، ونقل صورة سيئة في كتب التاريخ والمذاهب لما قامت به جماعة الخوارج من محاربة أو معاداة لبقية فرق المسلمين وجماعاتهم، إلا أنه في العصر الحديث شاءت الإباضية أن تُعرّف بقية المسلمين بمذهبهم وتقيم جسور التعارف والتقارب بينها وبينهم بالحوار والتعاون.

وكانت دعوة التقريب قائمة على الإيمان بوحدة الأمة ووحدة كتابها ووحدة قبلتها، وقدمت الإباضية نفسها لبقية المذاهب مركزة على نقاط الالتقاء والاتفاق، فهم يؤمنون بكتاب الله القرآن الكريم كلام الله وحيه وتنزيله، مصدر التشريع الأول، وهم يؤمنون بما جاء فيه حسب الفهم العربي ليست لهم تفسيرات شاذة أو مناهج مبتدعة، وهم يقولون بما جاء في مصادر التفسير المشهورة عند عموم المسلمين من مختلف المذاهب.

وكذلك هم متفقون مع بقية المذاهب في الإيمان بالحديث الشريف المصدر الثاني للتشريع، وإن كان مسند الإمام الربيع بن حبيب هو أصح كتاب للحديث النبوي عندهم، إلا أنهم لا ينكرون ما جاء في بقية كتب الصحاح فيحتجون بها، ويأخذون منها ما ثبتت صحته.

والإمام الربيع لم يجمع سوى ألف حديث تقريبا، كلها وبنصها مروي عند البخاري ومسلم أو غيرهما من كتب السنة.

وكتب الإباضية ومصنفاتهم تشهد بأنهم لا يجدون حرجا في النقل والأخذ عن عامة فقهاء المسلمين باختلاف مذاهبهم، وينزلون على ما ثبت من إجماع صحت طريقه وشروطه لا يخرقونه أو يحدون عنه.

وأما خلاف الإباضية مع بقية المذاهب في أمور العقيدة فهو محصور في مسائل ضيقة كعدم اشتراط القرشية في الإمام، وهم يختلفون كثيرا عن بقية فرق الخوارج التي اشتهرت في التاريخ بالإسراع في تكفير المؤمنين بالإصرار على الذنوب الصغار أو الكبار، فالإباضية لا يكفرون أحدا من الأمة بسبب تأويل أو خلاف، بل يحسنون الظن بكافة المسلمين من المذاهب المخالفة ويتعاملون معهم بالتسامح والتعايش.

وقد قام سليمان باشا الباروني الطرابلسي (ت1940م) بدور كبير في نشر التراث الإباضي في المطبعة البارونية بمصر حينما نفي إليها، وما يزال بعض هذا التراث النفيس حتى اليوم في طبعته الحجرية، مثل: قناطر الخيرات لأبي طاهر الجطالي، وشرح النيل وشفاء العليل، ووفاء الضمانة بأداء الأمانة لمحمد بن يوسف إطفيش، والدليل لأهل العقول لأبي يعقوب الوريحاني، والأزهار الرياضية في أئمة وملوك الإباضية لسليمان الباروني، وغيرها .

وتلا تلك الفترة دور للشيخ إبراهيم أبو إسحاق إطفيش (ت1965م) الذي نفاه الاستعمار الفرنسي إلى القاهرة عام 1923م، فأنشأ مجلة "المنهاج"، وعمل في دار الكتب المصرية، فشارك في تحقيق بعض مطبوعاتها الكبيرة كتفسير القرطبي وأجزاء من "نهاية الأرب". ثم تعرف على صاحب المطبعة السلفية محب الدين الخطيب، فعملا على إخراج ذخائر ونفائس من التراث الإباضي كطباعة الأجزاء الأخيرة من شرح النيل، والذهب الخالص، وشامل الأصل والفرع لمحمد بن يوسف إطفيش، وغيرها من المصادر والمراجع الهامة في الفقه والتاريخ.

تجربة العلامة محمد بن يوسف إطفيش الإباضي:

محمد بن يوسف إطفيش، هو أشهر عالم إباضي بالمغرب الإسلامي في العصر الحديث، وفي بعض كتبه ينهي نسبه إلى أبي حفص عمر بن الخطاب، وقد توفي عام 1914 هـ .

والإمام ابن إطفيش شخصية موسوعية، خدم العلم الشرعي وقضاياه، وترك مؤلفات في أغلب فنونه، ولم يتخل الشيخ عن دوره المجتمعي في الدفاع عن قضايا الأمة، فإنه تولى منصب القضاء، ثم اعتزله لما بسط الاستعمار الفرنسي نفوذه على منطقة ميزاب سنة 1882م، ودعا الشيخ إلى وحدة المسلمين في مواجهة احتلال بلادهم، ونبذ كل فرقة أو تعصب .

وأشهر مؤلفاته: "شرح كتاب النيل وشفاء العليل"، وهو يعد موسوعة فقهية جامعة لآراء المذاهب الإسلامية، وهو شاهد على محاولة فقهية تقريبية أقام فيها الشيخ حوارا بين المذاهب الإسلامية، عرض فيه أقوالها وأدلتها، واجتهد في ترجيح ما أيده الدليل والبرهان، وهذا الكتاب معتمد الإباضية في الفقه، وقد طبع مرارا ، وبواسطته تعرف العالم الإسلامي على الفقه الإباضي، واعتمدته لجان موسوعات الفقه الإسلامي في مصر والكويت .

وقد ألف العلامة الشيخ محمد ابن الحاج يوسف إطفيش المغربي كتابا يمثل خطوة على طريق الحوار والتقارب بين المذاهب الإسلامية بفكرته الرائده، وهو "جامع الشمل في حديث خاتم الرسل" والمطبوع على الحجر بمصر ، وهو الذي أعيد طبعه في سلطنة عمان بوزارة التراث القومي والثقافة سنة 1404 هـ . 1984م، وطبع بتحقيق محمد عبد القادر عطا بدار الكتب العلمية ببيروت لبنان في مجلدين سنة 1987م.

وقامت فكرة الكتاب على جمع الروايات الحديثية المنسوبة إلى سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم والتي اشترك في روايتها أهل السنة والإباضية، واختص ما يمكنه أن يجمع الشمل بين المذهبيين، ويفتح بابا للحوار والتقارب بين أهل السنة والإباضية.

وأول ما أورده فيه من الأحاديث: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "أحب الأديان إلى الله الحنفية السمحة". رواه أحمد والبخاري في الأدب والطبراني في الكبير عن ابن عباس زاد عبد الرزاق : قيل : وما هي الحنفية السمحة؟ قال: "الإسلام" .

وقد بدأ كتابه بأبواب العقيدة مثل كتاب التوحيد والإيمان، ثم كتاب محمد عليه الصلاة والسلام، ثم كتاب الملائكة، ثم أتبع ذلك بكتب الأخلاق ككتاب الحب والسلام والاستئذان، والعمل والذكر، والصدق، ثم أتبع ذلك بالكتب الفقهية الصلاة ، ثم الزكاة، ثم الصوم، ثم الحج.

ثم أتى في آخر الكتاب بتذييل في ذكر مصطلح الحديث، ذكر فيه الحديث المرسل، والمنقطع، والمعضل، والمسلسل، وغير ذلك .

تجربة الشيخ محمد حسين الحسيني الإمامي:

لقد كان للشيخ محمد حسين الجلاي المنتسب للمذهب الشيعي الإمامي تجربة مماثلة لما قام به الشيخ محمد بن يوسف إطفيش الإباضي في كتابه "جامع الشمل في حديث خاتم الرسل" ، وذلك بما صنعه في كتابه "معجم الأحاديث من روايات أهل البيت" والذي طبع في العاصمة عمان، بالمملكة الأردنية الهاشمية، وكانت طبعته الأولى في عام 1982م.

وقد جاء في مقدمة الكتاب على لسان صاحبه محمد حسين الجلاي متحدثاً عن منهج كتابه وغرضه من تأليفه: "إني إبان اشتغالي كنت أراجع المصادر المتيسرة من جوامع الحديث للأصحاب رضوان الله عليهم ، وكنت أحس بالافتقار إلى معجم للأخبار يشتمل على المأثور من السنة من طرق للأصحاب والجمهور، مما اتفقت على نقله مصادر الحديث المعتمدة لدى المذاهب الإسلامية كلها الموجودة اليوم، من دون تفريق بينها ، وذلك بالأسلوب اللائق، والترتيب الفائق، فإن السنة المطهرة كادت أن تضيع بين أعداء يقظين حاولوا التشكيك في حقائقها، وبين أدعياء مغفلين تمسكوا بموضوعاتها".⁽¹⁾

وقد احتوى الكتاب مقدمة وأبواباً وخاتمة، أما المقدمة فقد جاءت في دراية الحديث وعلومه، وأما الأبواب فهي ثمانية وعشرون باباً مرتبة حسب الحروف الهجائية، احتوت خمسة عشر ألف حديث نبوي شريف، وأما الخاتمة فقد جاءت في المشيخة أو الثبوت.

وفي الطبقات التالية عدل عن هذا الترتيب فجعل المقدمة في دراية الحديث كتاباً مستقلاً، ثم لخص المشيخة في كتاب إجازة الحديث.

وقال الشيخ الجلاي في حديثه عن مكانة الحديث: وترتبط مكانة الحديث وأهميته ارتباطاً مباشراً بشخصية الرسول الأعظم ومكانته، إذ ليس الحديث إلا حاكياً عنه سواء في كلامه أو سيرته، أو ما يؤيده عملياً، وشخصية الرسول تتجلى في الفكر الإسلامي . عقيدة وشريعة . المودع في القرآن الكريم في صورة إجمالية، إذ يكون الحديث في المرتبة التالية للقرآن، ويعتبر المصدر الثاني للفكر الإسلامي، ولا يمكن للباحث الاستغناء عنه في دراسته الإسلام عقيدة وشريعة⁽²⁾.

ويُعدُّ هذا منطلقاً يدفع في اتجاه التقريب، وهو اتفاق المذاهب الإسلامية على مكانة السنة النبوية وأهميتها، ثم الاتفاق على أنها المصدر الثاني للفكر الإسلامي عقيدة وشريعة بعد القرآن، أي يجب فهم السنة والأحاديث في ضوء القرآن.

1 - معجم الأحاديث لمحمد حسين الجلاي ص 15.

2 - معجم الأحاديث لمحمد حسين الجلاي ص 19.

وقال الشيخ الجلاي عن مشكلة الوضع في الحديث النبوي، وهي المشكلة التي عانت منها كل المذاهب ويجب الإقرار بذلك حتى لا يتشبث أصحاب أي مذهب بما روي عندهم على أنه الحق الذي لا مرية فيه، وما روي من أرباب المذاهب الأخرى هو الباطل المحض:

نظرا للمكانة الروحية التي تتمتع بها السنة في نفوس المسلمين جيلا بعد جيل ، ولأجل أهميتها البالغة في تفسير عموم القرآن أو بيان مجمله أو تركيز عقيدة غير مفصلة ؛ حاول المنافقون في الإسلام الدس في هذا المصدر الفكري وضعف الثقة فيه، وكان الرسول صلى الله عليه وسلم أول من قاومهم حيث أعلن قائلا: "لقد كثرت علي الكذابة ألا من كذب علي متعمدا فليتبوأ مقعده من النار". على ما رواه جمهور المحدثين. راجع المعجم مادة "كذب" : ويظهر من هذا الحديث المتواتر أنهم كانوا كثرة في حياة الرسول القائد، فكيف فيما بعد حياته الشريفة؟ فقد ثبت في التاريخ أن أصحاب الأطماع أولوا بأدق الأساليب وضع الحديث وتلفيقه على طبق أطماعهم السياسية والعقائدية والقبلية والقومية وغيرها .

وعن الإمام جعفر بن محمد الصادق قال: "إن أهل بيت صادقون لا نخلو من كذاب يكذب علينا فيسقط صدقنا بكذبه علينا عند الناس".

فإن من الطبيعي أن الوضعين لم يضعوا حديثا واضح الكذب والوضع، وإنما كانوا يخلطون الحق بالباطل والصدق بالكذب حتى يضيع الحق ويلتبس الصدق، ومن هنا نعرف أن حركة الوضع كانت وستبقى ما دام هناك حق وصدق، فلا بد أن يصارع الباطل والكذب بمختلف الوجوه وفي مختلف العصور، لقد كان اللعن من الرسول صلى الله عليه وسلم كافيا في الردع في عصر النبوة، وكلما بعدنا عن عهد الرسالة كانت الحاجة إلى تمييز الحديث الصادق أشد والافتقار أكد.

وينص الشيخ على حلّ هذه المشكلة فقال :

والأصل الذي يجب التعويل عليه في مثل هذا المقام إنما هو ما استنبط من الكتاب والسنة، وحيث إن الاختلاف في الاجتهاد فيه ما قد كثر فما من مذهب إلا يستند إليهما بوجه من الوجوه، فالمرجع القواعد التي اقتضتها سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم، من هجرته إلى وفاته ، فإنه ولا ريب قد حكم المجتمع الإسلامي وكانت سيرته العملية واضحة المعالم لمن درسها بروح عالية بعيدة عن التقليد الأعمى والتي سار بعده على سيرته صحابته الأخيار، وأهل بيته الأطهار ، وبذلوا في سبيل العقيدة كل ما يملكون من نفس ونفيس حتى رويت شجرة الإسلام بدمائهم الطاهرة⁽¹⁾.

وأما عن الكتب التي أخذ منها صاحب "معجم الأحاديث" والتي تخص المذاهب الأخرى :

مسند الإمام زيد بن علي الشهيد

الموطأ للإمام مالك بن أنس الأصبحي

المسند للإمام أحمد بن حنبل الشيباني

صحيح البخاري ومسلم وسنن الترمذي وأبي داود والنسائي وابن ماجه ، ومسند الربيع لأبي يعقوب
الوارجلاني ، وكنز العمال للمتقي الهندي .

مشروع قرار يضبط استراتيجية الحوار بين أتباع المذاهب الإسلامية :

- (1) أن يتحول الحوار بين المذاهب الإسلامية من مجرد بحث أو مؤتمر إلى مشروع متكامل.
- (2) أهمية دراسة التجارب السابقة في التقارب بين المذاهب الإسلامية .
- (3) إنشاء وثيقة أو برنامج يشرح فكرة الحوار والتقريب بين المذاهب الإسلامية وأتباعها، ودعوة الهيئات والمؤسسات المختلفة للتوقيع عليها والعمل بمقتضاها. فيكتسب مشروع الحوار أعضاء ومؤسسات داعمة لفكرته، لا يحتاج إلا أن يتعاون معها وينظم جهدها في خدمة مشروع التقارب.
- (4) التركيز على استدامة المشروع والحفاظ على تواصل عطائه وجهده؛ لأن الحوار والتقارب أمر لا ينتهي.
- (5) إعطاء الأهمية والأولوية للنص القرآني، ودراسة ما يمكن الاتفاق عليه بين المذاهب الإسلامية في فهمه وتأويله، وما يمكن قبول الاختلاف فيه، وما يكون مرفوضاً من الجميع، والاحتكام إلى المنهج اللغوي في فهمه.
- (6) جمع الأحاديث النبوية التي يتفق أرباب المذاهب على روايتها، أو لا يختلفوا فيما بينهم في قبول معانيها.
- (7) العمل على تطوير الفقه الإسلامي وخدمة قضايا الأمة بالاجتهاد الجماعي، الذي يقدم مصلحة أتباع المذاهب الإسلامية على الجمود على رأي مذهبي معين.
- (8) مخاطبة الساسة والحكام والمسؤولين في الدول الإسلامية، ودفعهم نحو التعاون والاتحاد من أجل تحقيق مصالح الشعوب الإسلامية، وألا يجعلوا الخلافات المذهبية عقبة في سبيل التقارب والتعايش، ومطالبتهم باحترام حقوق الأقليات المذهبية.
- (9) فصل مشروع الحوار والتقارب بين أتباع المذاهب الإسلامية عن أي صراع سياسي بين الدول أو الحكام.
- (10) ضرورة الاهتمام بوسائل الإعلام، وإنشاء على الأقل قناة فضائية، وصحيفة دولية، ومجلة دورية، تعبر عن فكرة الحوار وتدعو إليها، وتنقل وقائع الندوات والمؤتمرات الفقهية ، وتنظم برامج حوارية تدعم فكرة التقريب بين المسلمين، ولا بأس من إنتاج أعمال فنية تنشر فكر التسامح والحرية وتحيي الأجواء لوجود الحوار واستدامته.
- (11) إقناع القائمين على الجامعات الإسلامية والمعاهد العلمية في البلدان الإسلامية على القيام بدورهم في خدمة فكرة التقارب، وذلك بإقامة فعاليات وأنشطة تساعد على التبادل المعرفي والثقافي بين أساتذة الجامعات والطلاب، وتبادل الزيارات واللقاءات بين الجامعات المختلفة.

(12) نشر تراث الأئمة أصحاب الفكر الإسلامي المعتدل الوسطي، الذي يقاوم فكر الغلاة والمتشددين داخل كل مذهب.

موضوعات البحث

- مقدمة
- منهج الحوار
- التقارب واجب شرعي
- فكرة التقريب بين المذاهب الإسلامية
- عوامل نجاح تجربة الحوار بين المذاهب الإسلامية
- تجربة دار التقريب بين المذاهب الإسلامية بالقاهرة
- مجلة "رسالة الإسلام"
- تجربة الإباضية في التقريب بين المذاهب الإسلامية
- تجربة العلامة ابن إطفيش الإباضي
- تجربة الشيخ محمد حسين الإمامي
- مشروع قرار يضبط استراتيجية الحوار بين أتباع المذاهب الإسلامية